الاوضاع المالية والاجتماعية في مصر
في عهد الخديوي إسماعيل (١٨٦٣-١٨٧٩م)

Financial and Social Conditions in Egypt During the Reign of Khedive Ismail (1863-1879 AD)

م.م. علاء احمد عبد

Asst. Lect. Alaa Ahmed Abdel

وزارة التربية / الكلية التربوية المفتوحة– فرع سامراء

Ministry of Education / Open College of Education - Samarra Branch

E-mail: lalsamrayy521@gmail.com

الكلمات المفتاحية: الاوضاع، المالية، الاجتماعية، الخديوي اسماعيل.

Keywords: conditions, financial, social, Khedive Ismail.

الملخص

يسلط هذا البحث الضوء على الفترة الواقعة بين ١٨٦٣-١٨٧٩م والذي كان لها الاثر الكبير في تاريخ مصر الحديث، اذ شهدت هذه الفترة احداثاً مهمة في تاريخ مصر الحديث سواءً على الصعيد السياسي او على الصعيد الاقتصادي، اما على الصعيد السياسي فأنها شهدت اعتلاء الخديوي اسماعيل ١٨٦٣-١٨٧٩م عرش مصر وما ترتب عليها من علاقات مع الدول الكبرى المتمثلة بالدول الاوربية من ناحية والدولة العثمانية من ناحية اخرى ، وما ترتب عليه من تدخلات هذه الدول في شؤون مصر الداخلية، اما على الصعيد الاقتصادي فقد شهدت مصر خلال عهد الخديوي اسماعيل ١٨٦٣-١٨٧٩ م تدهوراً اقتصادياً كان له الاثر الواضح على الاقتصاد المصري في مختلف مفاصلة نتيجة اغراق مصر بالديون الخارجية مما فسح المجال للقوى الاوربية للتدخل في شؤون مصر الداخلية متحججة بحماية مصالحها الاقتصادية الامر الي انعكس سلباً على الشعب المصري الذي عانى ما عانى من اوضاع اقتصادية صعبة كان لها الاثر الواضح على المستوى المعيشي للسكان المصري فضلاً عن الاثار الاجتماعية الذي شهدها المجتمع المصري خلال هذه المرحلة.

Abstract

This research sheds light on the period between 1863 and 1879 AD, which had a significant impact on modern Egyptian history. This period witnessed significant events in Egypt's modern history, both politically and economically. On the political front, it witnessed Khedive Ismail's accession to the throne of Egypt (1863-1879 AD), and the resulting relations with major powers, represented by European countries on the one hand and the Ottoman Empire on the other. This resulted in these countries' interference in Egypt's internal affairs. On the economic front, during the reign of Khedive Ismail (1863-1879 AD), Egypt witnessed an economic decline that had a clear impact on the Egyptian economy in various aspects. This was due to Egypt being overwhelmed by foreign debt, which paved the way for European powers to interfere in Egypt's internal affairs under the pretext of protecting their economic interests. This negatively impacted the Egyptian people, who suffered from difficult economic conditions that had a clear impact on the standard of living of the Egyptian population, in addition to the social repercussions witnessed by society. Egyptians during this period.

المقدمة:

عُدَّت فترة الخديوي اســـماعيل(١٨٦٣-١٨٧٩) من الفترات المهمة في تاريخ مصـــر الحديث على كافة الاصـعدة السـياسـية والاجتماعية والاقتصـادية ، لما لها من اثار مهمة على الواقع المصري على المستوى الداخلي والخارجي خلال فترة حكمه

جاء اختيار عنوان البحث(الاوضـــاع المالية والاجتماعية في مصـــر في عهد الخديوي اسماعيل ١٨٦٣-١٨٧٩م) من اجل تسليط الضوء على الجانب المالي والاجتماعي الذي مارسه الخديوي اســـماعيل خلال فترة حكمه الممتدة من ١٨٦٣-١٨٧٩م وما شـــهدته هذه الفترة من جوانب سلبية وايجابية وتأثيرها على واقع الشغب المصري.

قُسم البحث الى مقدمة وتمهيد وعدد من المحاور وخاتمة وعدد من المصادر تضمن التمهيد(**اوضاع مصر الاجتماعية والمالية حتى عام ١٨٦٣**) اما المحاور فقد تناول المحور الاول الاوضاع الاجتماعية في عهد الخديوي اسماعيل اما المحور الثاني تضمن الاوضاع المالية ونهايتها اما المحور الثالث فقد اكد على الحضارة الاوربية واثرها في الحياة الاجتماعية وتناول المحور الرابع الخلاف بين الخديوي اسماعيل والسلطنة العثمانية اما المحور الخامس فقد تضمن تأثير المسألة المالية في نهاية حكم الخديوي اسماعيل ، اما الخاتمة فقد تناولت استنتاجات الباحث حول بحثه ، اما المصادر فقد استخدم الباحث مجموعة من المصادر منها الخديوي اسماعيل ومعشوقته مصر للباحث حسين كفافي، وتاريخ مصر الحديث من محمد علي الى اليوم للباحث محمد صبري ، الخديوي اسماعيل ،حياته ودوره السياسي والعسكري للباحث هادي جبار حسون.

تمهيد: اوضاع مصر الاجتماعية والمالية حتى عام ١٨٦٣.

وكان إسماعيل ينظر إلى المجتمع المصري بعين وينظر بالعين الأخرى على المجتمع الدولي حيث كانت مصر حينذاك في منعطف خطر بالنسبة للسياسة الدولية وكأنها ريشة في مهب الريح إذ كان العالم حينذاك في منعطف تاريخي أيضـــا فبعد وفاة محمد على ترك فراغاً هائلا كانت كل الدول تتطلع إلى مصـر ويتحينون الفرص للانقضـاض عليها امتداداً لمحاولات سابقة عديدة كانت في نفارين حيث اجتمعت دول أوروبا كلها من أجل القضـاء على الأسطول المصـــري وحرقه عن آخره وأيضـــا في معاهدة لندن وفرمان عام ١٨٤٠ وتحديد حجم مصـــر والقضـاء على زعامتها للعالم حينذاك ومع كل ذلك استطاع محمد على تحقيق الحياة الاجتماعية المصرية المتكاملة من مساواة بين أولاد المشايخ المصريين وأولاد المماليك وبين أولاده هو نفسه فكانت البعثات تضـم كل هؤلاء من أقباط ومسلمين ، لا فرق بين هذا وذاك وكل هذا صـهر في بوتقة الاصـلاح الشـامل هكذا استطاع إسماعيل أن يتذكر جده ووالده في مجلسـهما محاطين

بكل الخبرات من بقاع العالم فيتذكر كلوت بك طبيب محمد على الخاص وباغوص بك وزير الخارجية أو وزير البلاط ومن بعده ابن أخته نوبار – ناهيك عن سليمان باشا الفرنساوى وسيزيري والأن سوف نعيد عقارب الزمن الى قرن ونيف من السنين ونعيش مع إسماعيل وعائلته ونقلب في أوراقه وخطاباته لأبنائه ومن خلال هذه الخطابات سوف نتعرف أكثر على إسماعيل، ففي رأينا أن حياة الإنسان الاجتماعية تبدأ وتنطلق من بين أسرته .. فهيا نطالع معاً خطاب إسماعيل من مقره في فيشي في ٤ أغسطس ١٨٦٧ – الى ابنه حسن باشا – حسن باشا بينما خلف سعيد باشا نوعين من الديون لابن أخيه إسماعيل باشا فالدين الأول كان على شكل سندات على الخزانة مقابل أسهم قناة السويس (حصة مصر)، إذ يمكن عد هذه السندات بداية الدين المصري العالم، وهذا يرجع إلى عام ١٨٥٨ م ، أما الدين الثاني فكان قيمة القرض الأجنبي الذي استدانة سعيد باشا وكان مقداره ثلاثة ملايين ومئتين وتسعين ألف وثمانمائة جنيه في عام ١٨٦٢م ، على أن يسدد في غضون ثلاثين سنة وبفائدة ٧٪ (المصري ، ١٩٢٨، ٧١)

اولاً: الأوضاع الاجتماعية في عهد الخديوي اسماعيل:

كان الخديوي إسماعيل باشا(١٨٦٣-١٨٧٩م) رجل مجتمع من الطراز الأول ، واجتماعيا بطبيعته امتداداً لآبائه محمد على وإبراهيم فكان قريبا من الشعب يحس بآلامه وأفراحه بكل طبقات الفلاحين والموظفين والتجار والمماليك والجراكسة والمصريين المسلمين والاقباط وخلال هذه الصفحات سوف نستعرض بعض صور العلاقة بين إسماعيل الإنسان بالمجتمع المصري وسوف نطالع معاً القرارات التي تنظم هذه العلاقات ، وأيضا نماذج من الخطابات المتبادلة في هذا المجال مع استقرار حكم إسماعيل في السنوات الأولى لحكمه بعد صدور فرمان ١٨ يناير عام ١٨٦٣ الخاص بولايته عرش مصر كان نصب عيني إسماعيل المساواة بين أفراد الشعب، فدراسة إسماعيل في باريس في أواخر الأربعينات والخمسينات من القرن الماضي – القرن التاسع عشر – حيث عاصر تطبيقات ونظريات الثورة الفرنسية والتعرف على أفكار فلاسفتهم (مثل جان جاك روسو ومونتسيكو) ونظرية العقد الاجتماعي (Conrat Social) وفصل السلطات(السلطة التشريعية، والسلطة التنفيذية ، والسلطة القضائية) إذ كانت أفكار الثورة الفرنسية ما زال يتردد صداها في أجواء باريس بل في أجواء أوربا كلها وانتشرت إلى بقاع الأرض ولا غرابة في أن يكون إسماعيل نفسه من حملة أفكارها : العدل – المساواة – الإخاء(كفافي، ١٩٩٧، ٦٧).

جاء الخديوي إسماعيل إلى الولاية بعد عباس حلمي باشا ومحمد سعيد باشا كان عباس حلمي قد قام بإغلاق العديد من المدارس التي أنشأها محمد على ، أعداد التلاميذ والقبول بالمدارس واضطهد رفاعه رافع الطهطاوي ، والذي أوكل له خطط التعليم وأول مدير لمدرسة

الألسن . ومن بعد عباس حلمي باشا جاء محمد سعيد الذى ترك الحال على ما هو عليه بدون أي فكر أو تطوير أو تقدم ، المهم أن إسماعيل جاء حاكما لمصر ولم يكن باقيا من المدارس العالية إلا مدرسة الطب والصيدلة والولادة وقوامها ٦٩ طالبا والمدرسة الحربية بالقلعة السعيدية، وقوامها ١١٦ طالباً، فأدرك إسماعيل أن البداية الحقيقية لمستقبل هذه البلاد لا تكون إلا بالتعليم، فأعاد فتح المدارس التي أغلقت وتوسع في مراحل التعليم الابتدائي والأولى، والمكاتب (الكتاتيب في القرى والنجوع وأعيد تنظيمها ، وكذلك قام بإصلاح الأزهر الشريف وأنشأ المدارس العالية (الكليات) وأنشأ أقساما للمحاضرات العامة الدورية .. وبالنسبة لتعليم البنات قام إسماعيل بدور رائد في الشرق لتعليم البنات كما اهتم بالتعليم الأوربي وأدخل تعليم اللغات ، وشجع الإرساليات على فتح المدارس على النظام الأوربي مثل مدارس الفرير والجوزويت والليسيه، وخصص لهم الأراضي بالمجان وخصص مساحة للجامعة الامريكية التي أقيمت فيما بعد واهتم بالبعثات وأرسل العديد من الطلبة إلى كل الدول الأوربية في التخصصات المختلفة لملء الفجوة واستكمال النقص والقصور الذي حدث في ولاية كل من عباس وسعيد وفي هذا الصدد سوف نطالع معاً رسالة إسماعيل إلى الصدر الأعظم في ١٨ أغسطس عام ١٨٦٩م(كفافي، ١٩٩٧، ٩١) .

إن تقدم المدنية أدى إلى رقى العلوم وانتشار المعارف لذلك أعدنا فتح المدارس التي كانت قد أغلقت ، وكان بعثها من لدن الحضرة السلطانية وأنشأنا معاهد جديدة وجميع هذه المؤسسات منظمة تماماً على تعددها وتنوعها .. وقد أوفدنا البعثات إلى جميع أنحاء أوروبا ليضطلع أعضاؤها في العلوم والآداب والفنون والصناعة، كل ذلك مما بدأت البلاد تجنى ثماره وتدل هذه الاعمال على تقديرنا للعلم، وهو أول أساس لكل تقدم . وسوف نطالع معاً عزيزي القارئ اهتمام إسماعيل بالتعليم خلال الرسائل وتقرير القناصل المتداولة خلال عهد إسماعيل.. وفي هذا الصدد يقول تقرير مسيو أوكتاف شاموال إلى وزير المعارف الفرنسي في يونيو عام ١٨٦٨م إن مهمة المضي في تحقيق المشروعات العظيمة التي وضعها محمد على ، قد آلت اليوم إلى إسماعيل وهو مهتم بها اهتماماً كبيراً(كفافي، ١٩٩٧، ٩٢).

ثانياً : الأوضاع المالية.

ذكرت جريدة الوطن الصادرة في ٢١ سبتمبر سنة ١٨٧٨ تلغرافا يؤذن بموافقة الحكومة الانجليزية على تعيين ريفرس ولسون في المالية، ورحبت بالوزير الجديد ولكنها أنذرته بأنه "اذا لم يتصرف بالرفق والمشاورة حاق بالمالية ما حاق بالسكة الحديد وبالجمارك المصرية . وذلك فان السكة الحديد كانت فى مدة سعادة على باشا مبارك على قواعد راسخة ثم أتى بعده سعادة زكى باشا وأوجد فيها كذلك الدقة والضبط وكان إيرادها نحو مليون جنيه سنويا ثم أتى بعده الجنرال

ماريوت و رفت أولاد العرب وأحضر أجنبيين فصارت السكة الحديد مأكلة للآكاين وأصبحت إيرادات المصلحة نحو ثلاثمائة ألف جنيه(صبري، ١٩٢٦، ١٥٥).

شكلت الأزمة المالية في مصر في عهد الخديوي اسماعيل واحدة من أهم العقبات التي أعاقت المشاريع ملان والبرامج الإصلاحية التي تبناها إسماعيل باشا من أجل تحديث مصر وإحياء حضارتها وجعلها في مصاف الدول المتقدمة، فهل كانت الأزمة بسبب طبيعة إسماعيل باشا وإسرافه وبذخه على المشاريع دون تخطيط مسبق؟ أم كانت هنالك أياد خفية داخلية أو خارجية هي التي صنعت الأزمة المالية للإطاحة ببرامجه التي تبناها لجعل مصر جزءاً من أوروبا؟ وهل كان بإمكانه إقامة دولة قوية في إفريقيا في ذلك الوقت لتصبح حاجزاً قوياً وصلداً بوجه المشاريع الاستعمارية في زمن صراع الدول الاستعمارية في إفريقيا بشكل خاص وأجزاء أخرى من آسيا وأمريكا اللاتينية بشكل عام؟ ويمكن التساؤل، هل خسر المصريون القناة؟ أم أن القناة أضاعت المصريين وسؤال آخر، هل كان بإمكان إسماعيل باشا الوالي العثماني أن يقف بوجه من يريد تقسيم أسياده العثمانيين؟ لا سيما بعد ظهور المسألة الشرقية(الدسوقي، ١٤٣).

نهاية الأوضاع المالية:

وقررت صحيفة الوطن الصادرة فى ١٦ نوفمبر سنة ١٨٧٨ بمناسبة ذكر «مجلس التفتيش» (لجنة التحقيق) ان الحكومة بعد أن كانت استبدادية .. أصبحت مقيدة بالقوانين الشرعية ، وشكلت وزارة شورية ، وأعطى للمطبوعات قدر من الحرية(صبري، ١٩٢٦، ١٦٠) .

وفى شهر ديسمبر بدأت تظهر في الصحافة فكرة تنظيم مجلس النواب القديم على قواعد حرة أوسع من قبل " لأنه لا تصير الوزارة مسؤولة إلا به فانه ما معنى كون الوزراء مسؤولين عن تصرفاتهم في الحكومة بدون وجوده فهل المقصود أن انجلترا وفرنسا وأرباب ديون تسأل الوزارة عن تصرفاتها"

وقد اجتمع المجلس في ٢ يناير سنة ١٨٧٩ بالقلعة وبدأ من الوقت يرفع لواء الحركة الدستورية التي كانت تعتر بها المعارضة وتنتظر من ورائها كل خير بعد أن خابت آمال المصريين في وزارة ولسون – نو بار باشا ، كتبت الوطن في ٤ يناير تقول " أنه يوجد صنف من الناس يتظاهرون بالإصلاح... و إننا اذا تأملنا في تقرير مجلس التفتيش وجدناه مبينا لنا أن المستر ريفرس ولسون من البعيدين عن طرق الاستبداد فأمل الجميع أن يسقيهم من العدل شرابا ولا سيما الفلاح الذي قد زادت عليه في هذه السنة والتي قبلها الخطوب غير أنه حصل في الأسبوع الماضى مادل على أن الدهر لم يكف الفلاح العقاب . وذلك فان المستر ريفرس ولسون نشر في هذه الأيام منشورا للمديرين الفخام والمأمورين الكرام مفاده أن يحصلوا من الفلاح الأموال المتأخرة من سنة ١٨٧٩، و ٧٧ و ٧٨ فاذا لم يرض الفلاح بدفع هذه الأموال المتأخرة ألزموه ،

أولا ، ببيع أرزاقه ومحصولاته ثم ببيع مواشيه وأطيانه وجميع عقاراته ، مما كان له اثره الواضح على المواطن المصري(عمر، ١٩٩٣، ٣٥).

ثالثاً:دخول مظاهر الحضارة الأوروبية وأثرها في الحياة الاجتماعية.

اراد الخديوي اسماعيل العمل على إدخال مظاهر الحضارة الأوروبية في بلاده وأصبح ذلك شائعاً في كل مكان فمثلا كتبت التيمس تقول أن أسماعيل باشا خديوي مصر قادم إلى بلادنا (انجلترا) مرة ثانية بعد أن يمكث في ممالك أوروبا مدة وهو يعمل على الاقتداء بدول أوروبا في نشر المعارف وتعميم التمدن سواء كان المقتدى به من الانجليز أو الفرنسيين أو النمساويين إذ المقصود هو تحصيل الفتون وبث التمدن من أي جهة كانت حتى من أمريكا فذلك أولى من بقاء مصر على الحالة التي عرفت بها سابقا من التأخر والعجز و من حديث لإسماعيل مع دروان دي ليس وزير خارجية فرنسا يؤكد انه سيصل على تمكين ما بين مصر وفرنسا من تلك الصداقة العريقة . اقترنت بعوامل شتى من عوامل التقدم والتمدن، وتماشيا مع تلك السياسة زار مصر في عهد اسماعيل بعض الشخصيات الأوروبية الذين كان الخديوي إسماعيل يحرص على توثيق صلاته بهم اذ حرص الخديوي اسماعيل لدعوتهم للحضور الى حفل افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ ، وفى سنة ١٨٧٠ حضر إلى مصر الارشيدوق داستوريا وزوجته، وفى سنة ١٨٧١ حضر إلى سر أمبراطور البرازيل وزوجته ، وفى سنة ١٨٧٢ حضر إلى مصر الدوق دى مكلبورج وزوجته ، الجنرال شرمان البرنس والدمبورج ، الفراندون نيقولا الروسى . وفي سنة ١٨٧٤ البرنس دى روس ، وفى سنة ١٨٧٥ للبرنس أرثور الانجليزى ولى عهد انجلترا ، البرنس دى – بروجلى، وفى سنة ١٨٧٦ البرنس دى روس ، البرنس دى بروجلي ، البرنس الكس الروسى ولى عهد انجلترا، إمبراطور البرازيل وزوجته ،وفى سنة ١٨٧٧٧ البرنس دى ويتنبورح ،

كما قام الخديوي اسماعيل بزيارة أوروبا عدة مرات أهمها عندما حضر معرض باريس الدولي الذي اشتركت فيه مصر سنة ١٨٦٧ حيث حصلت فيه مصر على ميداليات ذهبية وفضية وبرونزية معروضاتها الزراعية والمصنوعات اليدوية وانتهز اسماعيل هذه الفرصة للتعرف على منتجات الدول الأوروبية والاقتباس منها العمل على إدخالها في مصر(رمضان، ١٩٧٧، ٦٠)

رابعاً: الخلاف بين الخديوي اسماعيل و السلطان العثماني:

زار السلطان العثماني عبد العزيز مصر وكان ذلك في بداية حكم اسماعيل في أبريل/نيسان سنة ١٨٦٣ وقد انتاب الخديوي اسماعيل سرورا كبيراً من تلك الزيارة فعمل على إقامة الاحتفالات والولائم وبالغ في ذلك، ما كلف خزينة الدولة الكثير من الاموال وأخذ يطوف

هو والسلطان وحاشيته جميع انحاء القاهرة والاسكندرية وأنزلهم في سراى القلعة التي أعدت لنزول الضيوف اعدادا شبيها ما يروى عن مثله في كتاب ألف ليلة وليلة مما لم يكن يستطيع القيام به أحد قبله . وفي تلك المناسبة منح السلطان عبد العزيز لإسماعيل وسام المجيدية لكي يعرب له عن شكره لما بذله من كرم الضيافة وبالغ اسماعيل في تقديم الهدايا والتحف السلطان وحاشيته حتى ملأ بها سفينة كاملة كما أعطى فؤاد باشا المصدر الأعظم والذي كان يرافق للسلطان في زيارته . أعطاه مبلغ ستين ألف جنيه لكي يستعين به في قضاء مطالبه لدى السلطان ، وسافر السلطان عبد العزيز من مصر وهو في حالة نفسية تجعله مستعدا لقبول أي طلب يقدمه اسماعيل اليه بشرط أن يكون الطلب واقعي و مقبول ، وكان اسماعيل يعرف الوسيلة التي تكفل قضاء طلباته لدى السلطان ،ولكن لم تستمر هذه العلاقة بين الخديوي اسماعيل والسلطان طويلا فقد كتب القنصل الفرنسي (أوتريه) الى وزير خارجيته في فبراير سنة ١٨٦٧ عن وجود خلاف بين الخديوي اسماعيل والسلطان العثماني، وفي الواقع لقد زاد الخلاف بين أسماعيل والسلطان عندما أقيمت احتفالات افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ فقد ذهب الخديوي بنفسه الى أوروبا الدعوة ملوكها الحضور تلك الاحتفالات باسمه مما زاد من غضب السلطان، فبدأ بدعوة ملك اليونان بالرغم من أنه كان قد أوشك منذ عهد قريب أن يشتبك في حرب مع تركيا وأن علاقاته بها كانت عدائية أكثر منها ودية بسبب كريت فدعاء لحضور تلك الاحتفالات وقدم لزوجته الجميلة مائة ألف فرنك مساعدة للمهاجرين الكريتيين وكأنما تركيا في واد ، ومصر في واد آخر (رمضان، ١٩٧٧، ٦٤).

وكان اسماعيل قد طلب – في خلال حملة كريت هذه ــ من الباب العالي أن يخوله حق تعيين سفراء لمصر لدى الدول الاجنبية فرأى الباب العالي أن هدفه الاستقلال والانفصال عن تركيا فرفض طلبه فغضب اسماعيل وهدد بسحب جنوده من كريت أو يستحوذ على الجزيرة اذا لم تستجب إلى طلباته (رمضان، ١٩٧٧، ٦٥).

خامساً: المالية والتدخل الأجنبي بداية عهد الخديوي اسماعيل ١٨٦٣-١٨٦٩.

عرف عهد إسماعيل العظمة والبؤس في مجالي السياسة والاجتماع، بالضبط كما حدث في عهد محمد على فمنذ اعتلاء إسماعيل لعرش مصر سنة ١٨٦٣ وحتى الاحتفال المهيب بافتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ – كان إسماعيل هو الذي يملك ناصية الأمور في مصر، وظهرت مصر بمظهر الدولة العظيمة، فكانت هذه الفترة هي الفترة المضيئة في عهده(صبري، عطية، ١/١٧٥).

ثم بدأت فترة الإخفاقات السياسة والمالية والارتباك الإداري والاجتماعي، التي أنت إلى التدخل الأوروبي في شئون مصر الداخلية. وكانت سنة ١٨٧٩– آخر سنوات حكمه – هي ذروة

معاناة الشعب وبؤسه وفي أتون هذه المحنة العظيمة، تكونت عقلية جديدة تبلورت فيها الأسباب المباشرة – وغير المباشرة– للثورة التي هبت في عامي(١٨٨١–١٨٨٢)

لقد عمل الخديوي إسماعيل على استكمال المشروع الذي بدأه محمد على إلا أنه لم يحظ بعبقرية سلفه، وفي الواقع، فإن مهمته كانت أشمل وأحيانا أوسع مجالاً من مهمة محمد على وأكثر منها خطورة في بعض النواحي: فقد كانت هذه الفترة فترة انتقالية بالمعنى الحرفي للكلمة(صبري، ١٩٢٦، ٩٥) .

وكان عصر اسماعيل كعصر محمد على ينطوي على العظمة والبؤس من الوجهتين السياسية والعمرانية. وكان اسماعيل منذ ولايته (١٨٦٣) الى افتتاح القناة (١٨٦٩) صاحب الأمر والنهي وكانت مصر عليها مخايل العظمة ، وكان هذا العصر من أزهى عصورها . ثم جاء عصر محن سياسية ومالية ارتبكت فيه الادارة والعمران فتدخل الأجنبي في شؤونها وقد كان هذا العصر (١٨٦٩) – ١٨٧٩) مدرسة المحنة الكبرى التي تكونت فيها روح جديدة ترجع اليها أسباب ومقدمات الثورة العربية(صبري، ١٩٢٦، ٩٥).

احتاجت مصر الى يد حازمة وقوية تستخدم بمهارة طاقاتها التي كانت منظمة للغاية في عهد محمد على ثم أهملت تماما في عهد سعيد: ففي المجال الاقتصادي، كان دين الحكومة المصرية حتى وفاة سعيد يبلغ ٢٦٧ مليون فرنك ويشتمل على :

١. مبلغ ٨٨ مليون و ٨٢١ ألف فرنك ثمن الـ ١٧٧ ألف و ٦٤٢ سيما التي نسبتها شركة قناة السويس لسعيد.
٢. مبلغ ٦٠ مليون فرنك قيمة القرض الكبير الذى عقده سعيد في ١٨٦٢، وذلك بدون احتساب قيمة العمولات ونسبة الفوائد الباهظة وحقوق الانتفاع.
٣. مبلغ ٢ مليون و ٣٠٠ ألف وفرنك قيمة التعويضات والمبالغ المستحقة للحكومة والتى لم يتم تسديدها بسبب تدخل القناصل.
٤. وأخيرا، قيمة أذونات الخزانة التي أصبحت دينا سائرا يكاد يساوى الذين الأساسي.

واختار الوالي الجديد أن يبدأ بإصلاح الإدارة وحماية مصر من الهجمة التي شنها عليها رجال المال الأوروبيون(صبري، عطية، ١/١٧٥) .

ويبدو أن إسماعيل قد فهم هذا الموقف جيدا فغداة توليه الحكم – يوم ٢٠ يناير – أقام حفل استقبال ضخم لكبار الموظفين المصريين والقناصل وألقى خطبة أعلن فيها:

((لقد قررت تكريس كل قواي ودأبي لرخاء البلد الذي دعيت لحكمه. إن النظام والاقتصاد في النفقات هما أساس لية إدارة جيدة، وسأتابع بكل ما في وسعى تطبيق هذا النظام والاقتصاد في النفقات. ولكي أعطى مثالاً للجميع، وأثبت عزمي الأكيد على تنفيذ ذلك، فقد قررت ترك النظام الذى اتبعه من سبقوني، وقررت تحديد مخصصات لنفسي لن أتجاوزها أبدا إن هذا الإجراء سيساعد على تكريس كل موارد البلاد للزراعة. كما أنني سأعمل على إلغاء نظام السخرة البغيض الذي تمارسه الحكومة المصرية – حتى الآن – لتنفيذ أشغالها إن السخرة هي السبب الأساسي – بل والوحيد الذى يمنع البلاد من النمو الذي تستحقه)).

لقد كان إسماعيل ذا طبيعة مزدوجة، وكان يمتلك تناقض بين ملكاته خصوصا بين الذكاء والشخصية، وبين الإدراك والتنفيذ. ولذلك، نجده في مجال المالية يدعو إلى الاقتصاد في النفقات والتوفير (صبري، عطية، ١/١٧٥).

المسألة المالية وانتهاء حكم إسماعيل باشا:

لو حاولنا التمعن بالنظر إلى كمية ما قام به الخديوي إسماعيل باشا من المشروعات والأعمال العامة في البلاد، وراعينا ما كان في قصوره وحفلاته من أنواع البذخ والأبهة مما نافس به أكبر ملوك الأرض، علمنا أن ذلك كان يتطلب نفقات كبيرة تضيق خزائن مصر عن تحملها. فكان رحمه الله يستعين على ذلك بإنجاز بعض أعماله من غير أن يدفع أجرها نقدًا، وهو ما يسمى بالدين السائر ويقترض ديونا من الدول الأوروبية فيُبقي عليه دينا وهو لتسديد نفقات بعضها الآخر وهذه تسمى ديونًا ثابتة وكانت الديون الثابتة لا تُعطى إلا إذا قدم لأصحابها ما يضمن سدادها، مثل دخل بعض مصالح الحكومة والأموال المجبية من بعض المديريات، فإذا تعذر عليه الحصول على ما يبغي من الدول الأوروبية ما يطلبه من المال من أهل البلاد، سواء أكان ذلك بزيادة الضرائب أم باقتراض ديون أهلية(صبري، عطية، ١/١٧٥) .

ومن أشهر ما جمعه بهذه الطريقة الأخيرة المبالغ التي جباها بمقتضى القانون المعروف بقانون «المقابلة». أعدَّ هذا القانون بمشورة ناظر المالية الشهير «إسماعيل باشا صديق المفتش»، الذي يعرف اسمه كل فلاح عاش في هذا العهد، والذي كانت له المقدرة العظيمة في جباية الضرائب من الفلاحين. ومؤداه أن كل مالك من ملاك الأرض يمكنه أن يصبح معفى على الدوام من دفع نصف ما عليه من الضريبة السنوية إذا دفع للحكومة ما يعادل تلك الضريبة ستة أعوام، وله أن يدفع هذا المبلغ جملة أو على ستة أقساط سنوية – وفي هذه الحالة تُدفع أيضًا الضريبة الأصلية حتى يتم تسديد الأقساط.

حاول الخديوي اسماعيل بالحاق بعض الممتلكات بأملاك مصر وتمكن من استصدر فرماناً من السلطان في عام ١٨٦٥ بإحالتهما إلى عهدته ، وجعلهما فرمان ١٧ مايو ١٨٦٦ من

ملحقات مصـــر الوراثية وذلك في مقابل زيادة الجزية إلى ٦٠٠ ألف جنيه، وقد أراد رجال الباب العالي أن يتنازلوا لإســماعيل عن ميناء زيلع فعرضــه الصــدر الأعظم على أبراهام – وبعد مخابرات (مالية) صــدر خط شــريف (١) في يوليو ١٨٧٥ يعهد إلى الخديوي اسـماعيل باشـا حكومة هذا الميناء وملحقاته ق مقابل زيادة في الجزية الســنوية قدرها ١٥ ألف جنيه عثماني. وكان ضـم هذ الميناء كسـبا لإسـماعيل ، بحكم أن زيلع ميناء منطقة هرر التي اعتزم فتحها في ذلك الوقت . وقد جعل إسماعيل من هذه البلاد محافظتين عرفتا بمحافظتي زيلع وبربرة – وبضم زيلع وبربرة امتدت سلطة مصر من سواحل البحر الأحمر إلى السواحل الشمالية لخليج عدن ، ثم وصلت بعد فتوح إسماعيل في شرق إفريقيا إلى رأس غردفوي على المحيط الهندي، أغلب وأهم مرافق الإنتاج كذلك النقل والأسـواق، وكان لهم الدور الفعال في تجارة الواردات أيضـاً فكانت لهم السـيطرة على كل ما يحقق الربح السـريع بغض النظر عن سـمعة ذلك العمل فتمكنوا من جميع أوجه النشاط الاقتصادي في البلد(الحفناوي، د.ت، ٤١١٨)(السعيد، د.ت، ١١٢).

ومن بين العوامل التي ساعدت المستثمرين الأجانب على استثمار رؤوس أموالهم داخل مصــر هما عاملان تمثل الأول في ســياســة إســماعيل باشــا في منح الامتيازات للأجانب في ممارسة نشاطهم الاقتصـادي بحرية مع إعفائهم من الضـرائب المفروضـة من الحكومة المصـرية، مما أثر سـلبياً على المسـتثمرين المحليين أما العامل الثاني فقد تمثل في مسـاندة قناصـل الدول الأوروبية لرعاياهم والضغط على الحكومة التي بدت ضعيفة باتجاه أي إجراء قانوني يصدر بحق الأجانب(متولي، ١٩٩٠، ٥٣)، (الجوراني، ٢٠٠١، ٢٣).

تمثل تغلغل رؤوس الأموال الأجنبية في الاقتصـــاد خلال تلك الفترة في جوانب متعددة مثل انشاء المصارف والشركات المختلفة، اذ تأسيس البنك المصري الإنجليزي – The Anglo Bank Egyptian في عام ١٨٦٤م وبرأس مال قدره مليونين جنيه إسترليني، وخضـع للقوانين البريطانية فقط، وقد حقق أرباحاً قدرها سـبعون ألف جنيه في السـنة الأولى، فضـلاً عن عدة شركات سميت باسم شركات الامتياز (انيس، د.ت، ٢٢)

الخاتمة

توصل الباحث الى مجموعة من الاستنتاجات منها.

١- لم يكن عمل الخديوي اسماعيل مقتصراً على الجانب السياسي فقط بل ركز اهتماماته على الجانب المالي والاجتماعي وحاول تطوير المجتمع المصري في مجالات مختلفة

٢- حاول الخديوي اسماعيل على اثبات وجوده سياسياً من خلال محاولاته لتطوير البلاد اقتصادياً واجتماعياً وان كان ذلك سَبب الى مصر تداعيات كبيرة على المستوى السياسي والاجتماعي وادخل البلاد في ازمة مالية كبيرة.

٣- كانت سياسته الاقتصادية لها اثارها السلبية على الواقع المصري متمثلة بفتح الباب امام القوى الخارجية للتدخل في شؤون مصر الداخلية متحججة بحماية مصالحها الاقتصادية ، اذ كان سببه هو الديون الخارجية الذي اغرق مصر بها.

المصادر

- أنيس، محمد. (د.ت) .*الدولة العثمانية والشرق العربي* .القاهرة.
- الإسكندري، عمر، وحسن، سليم. (د.ت) .*تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر* .مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. مصر.
- حسون، هادي جبار .(2014) .*الخديوي إسماعيل: حياته ودوره السياسي والعسكري* .مكتبة طريق العلم. العراق.
- رمضان، صالح .(1977) .*الحياة الاجتماعية في مصر في عهد إسماعيل باشا (1863-1879)* كلية التربية، جامعة عدن. اليمن.
- صبري، محمد .(1939) .*تاريخ مصر الحديث من محمد علي إلى اليوم* .دار الكتب المصرية. القاهرة، مصر.
- كفافي، دار حسين .(1997) .*الخديوي إسماعيل ومعشوقة مصر* .الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة، مصر.

Sources and References

- Anis, Muhammad. (n.d.). The Ottoman State and the Arab East. Cairo.
- Al-Iskandari, Omar, and Hassan, Selim. (n.d.). The History of Egypt from the Ottoman Conquest to the Present Time. Hindawi Foundation for Education and Culture. Egypt.
- Hassoun, Hadi Jabbar. (2014). Khedive Ismail: His Life and His Political and Military Role. Tarik Al-Ilm Library. Iraq.
- Ramadan, Saleh. (1977). Social Life in Egypt during the Reign of Ismail Pasha (1863-1879). Faculty of Education, University of Aden. Yemen.
- Sabri, Muhammad. (1939). Modern History of Egypt from Muhammad Ali to the Present Day. Egyptian Book House. Cairo, Egypt.
- Kafafi, Dar Hussein. (1997). Khedive Ismail and Egypt's Beloved. The Egyptian General Book Organization. Cairo, Egypt.